عرفات والشيوعيون .. علاقة ثابتة وحميمة

فيصل حوراني *

المساعي التي استهدفت تشكيل الحزب الشيوعي الفلسطيني بدأت في العام ١٩١٩. المبادرة إلى تشكيل الحزب اتخذها مهاجرون يهود وفدوا إلى فلسطين ونشطوا بين عمال الميناء والسكك الحديدية في حيفا. وبعد البداية المتواضعة بخمس سنوات، كان الحزب الناشيء قد أفلح في اجتذاب أعضاء عرب، وعقد الحزب مؤتمره الخامس الذي أبرز، لأول مرّة، السمة المشتركة، العربية اليهودية، للحزب الفلسطيني. وهو المؤتمر الذي أقرّ اعتبار الحركة العربية القومية في فلسطين حركة مناوئة للاستعمار. ثم بدأت العملية المطردة التي استمرت في السنين العشرين التالية لتعريب الحزب وتنقية فكره وسلوكه من التأثيرات الصهيونية التي اقترنت بنشأته، والواقع أن تعريب الحزب كان شرطاً وضعه الكومنترن، التشكيل العالمي الذي ضمّ الأحزاب الشيوعية كلها، وطلب تحقيقه قبل أن يمنح الحزب الفلسطيني عضويته الكاملة.

في العام ١٩٤٣، انقسم الحزب، بقرار اتخذته لجنته المركزيةبأغلبية أعضائها، إلى مجموعتين؛ واحدة ضمت أعضاء الحزب اليهود وتابعت النشاط في الوسط اليهودي باسم الحزب الشيوعي اليهودي؛ وأخرى ضمت الأعضاء العرب وسمت ذاتها عصبة التحرّر القومي ونشطت بين أهل البلاد العرب، وبعد الإعلان عن قيام إسرائيل ونكبة أهل البلاد العرب، انعقد في حيفا، في تشرين الأول/ أوكتوبر ١٩٤٨، ما اشتهر باسم مؤتمر وحدة الحزب، وفيه التقى من جديد أعضاء الحزب اليهودي وأعضاء

* كاتب فلسطيني

العصبة العربية الذين بقوا في مناطق السيطرة الإسرائيلية، وأعلن الطرفان تأسيس الحزب الشيوعي الإسرائيلي .

هذا الحزب شهد صراعات داخلية متصلة، وانتهى الأمر بانشقاقٍ أفرز حزبين: الحزب الذي قاده المتأثرون بالصهيونية والذي أبقى له القانون الإسرائيلي حق استخدام اسم الحزب كما كان قبل الانشقاق، أي الحزب الشيوعي الإسرائيلي " ماكي"؛ والحزب الذي ضم الأعضاء العرب واليهود المثابرين على النهج الأممي والذين نشطوا باسم القائمة الشيوعية الجديدة "ركاح". وبمضيّ الوقت، تخلى "ماكي" أولاً بأول عن صفته الشيوعية، ثم حل ذاته بذاته، هو الذي عجز عن أن يظفر بأكثر من مقعد واحد في كنيست إسرائيل، وانضم إلى حركة صهيونية. أما ركاح، فواصل سيرته حزباً شيوعياً أغلب أعضائه من العرب وإن لم يخل في أي وقت من أعضاء يهود. وقد تراوحت مقاعد هذا الحزب في الكنيست بين ٣ و ٥ مقاعد.

على الصعد الأخرى، تواجد بعد النكبة شيوعيون في قطاع غزّة وضفتي الأردن وأماكن تجمعات الفلسطينيين الأخرى في الشتات، وتنوعت مصائرهم. ففي غزة، شكل شيوعيو القطاع والشيوعيون الذين وفدوا إليه لاجئين الحزب الشيوعي في قطاع غزة. وكان هذا عند نشأته حزباً صغيراً. ثم لم يلبث أن تحول الحزب الصغير إلى حزب مقدام ومتميز في الحركة الوطنية الفلسطينية التي نشأت وتطورت في قطاع غزة بعد ١٩٤٨.وفيما يتصل بالموضوع الذي تتناوله هذه المقالة، يجدر أن ننوه بحقيقة أن صلة عدد ممن سيؤسسون "فتح" قد انتظمت منذ وقت مبكر مع شيوعيي غزة، وأَخَصُّ الميادين التي شهدت توطد هذه العلاقة كانت السجونَ المصرية حين ضمت الفريقين معاً. وهكذا، صار معين بسيسو وعبد الرحمن عوض الله وغيرهما من قادة حزب غزة الشيوعي زملاء سجون لصلاح خلف "أبو إياد"، ومحمد يوسف النجار " أبو يوسف" وغيرهما، ممن كانوا آنذاك أعضاء في منظمة الإخوان المسلمين ثم بارحوا منظمتهم ليؤسسوا "فتح".

الشيوعيون الفلسطينيون الذين جمعتهم النكبة في ضفتي الأردن، أي في ما صار المملكة الأردنية الهاشمية، تعاونوا مع نظراء لهم شرق أردنيين، وانتهى الأمر بتأسيس الحزب الشيوعي الأردني. ولأن عدداً من أعضاء الحزب التجأ، هرباً من البطش أو طلباً للدراسة الجامعية، الى بلدان عربية أخرى، دمشق أو بغداد أو القاهرة، فقد أمكن أن يلتقي شيوعيون آخرون مع آخرين ممن سيؤسسون "فتح". ومن الممكن أن نعدّ الفلسطيني نديم النحوي والأردني منير الحمارنة، بين معارف وأصدقاء ياسر عرفات المبكرين، هم الذين التقوا في القاهرة، في أوائل الخمسينات، واشتركوا في الجهد الذي استهدف تأسيس رابطة الطلاب الفلسطينيين فيها.

الآخرون الذين سيقوا إلى بلاد الشتات الأخرى انضموا إلى شيوعيي هذه البلاد ونشطوا في إطار

أحزابها. وقد ينبغي أن يشار هنا إلى أهم تجمع لشيوعيين فلسطينيين خارج فلسطين والأردن وهو تجمعهم في الحزب الشيوعي السوري، وهو التجمع الذي ضمّ نسبةً ملموسة من العسكريين الفلسطينيين ممن لعبوا أدواراً ذات أهمية في رفد الحركة الوطنية الفلسطينية بالخبرة والسلاح، فضلاً عن المقاتلين. شيوعيو الضفة والقطاع، وكذلك شيوعيو الشتات بمعظمهم، انتهى بهم الأمر إلى التوحد في العام ١٩٨٢ في حزب واحد هوالذي استعاد الإسم الأول: الحزب الشيوعي الفلسطيني. لكن ظروفاً طرأت فحملت هذا الحزب إلى تبديل اسمه وتعديل برنامجه أو لنقل تبديله، فصار اسمه حزب الشعب الفلسطيني، وهو ما ستتناوله هذه المقالة لاحقاً.

حين بدأت الجهود الرامية إلى تأسيس " فتح "، في أواخر خمسينيات القرن العشرين وأوائل ستينياته، كان الشيوعيون العرب، وبضمنهم فلسطينيوهم، في أضعف حالاتهم، إذ كانوا مشتبكين، من جهة اليسار، مع الناصريين، وفي قوامهم حركة القوميين العرب آنذاك، ومن جهة اليمين مع الرجعية، وفي قوامها أنظمةحكم وضعت البطش بالشيوعيين في قائمة أهدافها.

" فتح " التي حملت منذ نشأتها أفكاراً متجانسة وأخرى غير متجانسة من أفكار اليمين واليسار لم تكن آنذاك مؤهلة لإيجاد ما هو مشترك بينها وبين الشيوعيين. وياسر عرفات الذي كان أقدر من مثّل سمات " فتح " وتمثّلها وسعى إلى ربطها بما يحيط بها في عالمها العربي، لم يكن مهيئاً، بعد، للانتباه إلى ما قد يكون مشتركاً بين نزعة " فتح " الوطنية الفلسطينية وبين برنامج الشيوعيين المتفرد آنذاك في دعوته إلى تمكين الشعب الفلسطيني من الاستقلال في دولة خاصة به وممارسة حقه في تقرير المصير بحرية.

في هذا الوضع الذي استمر إلى بُعيد الإعلان عن نشأة " فتح " في العام ١٩٦٥، لن يقع المتتبع لأدبيات الحركة وسلوك مؤسسها ياسر عرفات على ما يظهر اهتماماً خاصاً بالشيوعيين. هذا لا ينفي إمكانية الوقوع على ما يظهر مواقف فتحاوية تدين الشيوعين بما كان يُدينهم به العرب القوميون والآخرون الرجعيون، خصوصاً إدانتهم بالتفريط في حقوق الشعب الفلسطيني، على خلفية ما شاع من أن الشيوعيين العرب تحمسوا لقرار تقسيم فلسطين حين صدر هذا القرار في العام ١٩٤٧. ولن يخطىء المرء إذا حكم بأن " فتح " خلت في تلك السنوات من متعاطفين مع الشيوعيين، هي التي ضمت كثيرين كارهين لهم.

هذه الملاحظة تستدعي ما تميز به ياسر عرفات، وهو تحرره من العداء المسبق أو الدائم لأي فريق فلسطيني وأي فريق آخر إذا كان من المؤثرين في الشأن الفلسطيني، بكلمات أوضح: ألف عرفات أن يتخذ مواقفه من أي شخص أو فريق في هدي حسابات عملية لا يأذن لمشاعره الشخصية أن تتدخل فيها. وقد انسحب هذا على الشيوعيين كما انسحب على سواهم. والحسابات المبنية على

أسس عملية تتبدل عادة بتبدل الظروف. وقد شهدت مواقف عرفات من الشيوعيين تبدلات مطردة رسمت مساراً إيجابياً صاعداً قلما تجمد أو انتكس. وهنا، يحين أوان الحديث عن أهم سمات القائد الذي تصدّر قيادة العمل الوطني الفلسطيني كله وهو في الأربعين من عمره وظل في الصدارة إلى يوم رحيله عن دنيانا بعد ثلاثة عقود ونصف عقد، إنها سمة الجمع الخلاق بين البراغماتية التي لا تتفق عادة مع الثبات على المواقف وبين الوطنية وما تتطلبه من ثبات.

حسابات عرفات الأولى لم توجب عليه أن يتطلع إلى إنشاء علاقة خاصة مع الشيوعيين الفلسطينيين تزيد عن علاقته مع قوى سياسية ٍليست هي المسيطرة في ساحة العمل الوطني. لكن الحسابات ذاتها لم توجب على القائد المؤسس أن يجاري المزاج الغالب في " فتح "، كما ارتسم مع بداية تشكلها، وهو المزاج الذي اتسم، عموماً، بالسلبية إزاء الشيوعيين ومن في حكمهم. ولا شك في أن القائد المؤسس العارف بأنه منهمك في الاشتباك مع إسرائيل ودول المعسكر الامبريالي التي تحميها، كان يتطلع منذ البداية إلى اجتذاب كل قوى الشعب الفلسطيني والقوى العربية الأخرى إلى المعمعان، تماماً كما كان يتطلع إلى الظفر بدعم الاتحاد السوفياتي الواقف على قمة المعسكر المناهض للمعسكر الامبريالي. وبإمكان كاتب هذه السطور أن يشهد، هو الذي عرف ياسر عرفات قبل أن ينقضي النصف الأول من عقد ستينيات القرن العشرين وأدار معه أحاديث مستفيضة، أن قائد " فتح " المؤسس، هذا، كان حريصاً منذ ذلك الوقت على إظهار ما ينم عن تطلعه إلى كسب تأييد الشيوعيين وتأييد الاتحاد السوفياتي للمطاليب الوطنية الفلسطينية، وقلّما صدر عنه، حتى في أحاديثه في المجالس الخاصة، ما قد يُعدُّ استفزازاً متعمداً لأي منهم.

والحاصل أن المزاج الذي قد يدفع فتحاوياً إلى لوم الشيوعيين وازنه، عند عرفات، التطلع إلى التعاون معهم. ولئن نشأ الوضع الذي أجاز لفتحاويين ممن جاءوا إلى" فتح " من منابت يمينية أو يسارية متطرفة أن ينتقدوا مواقف الشيوعيين الفلسطينيين وغيرهم من الحل المتوخى للقضية الفلسطينية. لكن جمهرة الفتحاويين، وفي المقدمة عرفات، لم تجعل النقد سبباً لخلق حالة عداء.

التطور الأول الحاسم ظهرت إرهاصاته بعد أن صار عرفات في العام ١٩٦٩ رئيساً للجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وقائداً عاماً لقوات الثورة الفلسطينية، كلها، وليس لـ " فتح " وحدها. وقد اشتد تواتر هذه الإرهاصات مع اشتداد الصدامات بين ناس الثورة الفلسطينية وبين جيش الأردن وأجهزة أمنه. فاشتداد الصدامات أبرز الحاجة إلى تأييد الجمهور الأردني للوجود الفلسطيني المسلح في البلد. ولأن جمهرة الشيوعيين برزت في طليعة القوى التي دافعت عن هذا الوجود، حتى وهي تنتقد بعض مظاهره، فإن علاقة قيادة م.ت.ف. وعرفات على رأسها، بالشيوعيين توطدت واكتسبت حميمية يُتقن هذا القائد بثّها. ولأن هذا التطور اقترن بتكشّف خطأ مقولة الفلسطينيين

بأن العرب قد يختلفون على أشياء كثيرة إلا أنهم يلتقون على تأييد الشعب الفلسطيني، فإن الحاجة اشتدت أكثر فأكثر إلى تحقيق أوسع التفاف شعبي حول م.ت.ف. في مقابل التأييد الذي حظيت به سلطات الأردن.

والذي حصل أن ياسر عرفات كان، كعادته عند كل منعطف، سباقاً إلى إعادة النظر في حسابات " فتح " الأولى، مثلما كان سباقاً، أيضاً، في تهيئة " فتح " لتقبل ما يَهْجِسُ به من حاجة إلى تبديل الموقف والسلوك للتواؤم مع الحسابات الجديدة وتخفيف أذى الحسابات السابقة الخاطئة. وفي اليقين أن إرغام مسلحي الثورة الفلسطينية على مغادرة الأردن، في ١٩٧٠ و١٩٧١ ، كان العامل الأشد تأثيراً في دفع عرفات لولوج المسار الذي طوره هو والمتفقون معه في الرأي. وهذا هو التعديل الذي أفضى إلى إسقاط مقولة كلّها أو بلاها، حين يتعلق الأمر بهدف تحرير فلسطين، وأحلّ محلّها مقولة المواءمة بين الهدف الوطني العام وبين المطاليب الوطنية المتدرجة وحجوم الحقوق التي تتوخاها هذه المطاليب.

وفيما الدافع إلى هذا التعديل آخذ في التشكل داخل م.ت.ف. خصوصاً لدى عرفات، كان الحزب الشيوعي الأردني يشهد في داخله خلافات بين فريقين شكل الموقف من سياسة الثورة الفلسطينية، خصوصاً " فتح "، واحداً من أهم موضوعاتها. والواقع أن أغلبية الحزب وقفت في هذا الخلاف قريبة من سياسة م.ت.ف. كما رسمتها أدبياتها الرسمية، أما أقلية الحزب، فوقفت مع ما كان مضمراً دون أن يُفصح عن ذاته، فدعت إلى تركيز المقاومة المسلحة ضد الاحتلال الإسرائيلي، وإلى تجنب الإنهماك في صراعات مسلحة لا لزوم لها مع هذا أو ذاك من أنظمة الحكم العربية، كما دعت إلى نقد النهج المغامر، وحثّت م.ت.ف. على التعقل في الفكر وفي السلوك. وأفرز الخلاف على الصعيد العملي إقدام الأغلبية على تشكيل فصيل شيوعي مسلح، في مجاراة واضحة لفصائل م.ت.ف. المسلحة، وكانت هذه خطوة لم تتحمس لها الأقلية فعمقت الخلاف. وأنشأت الأقلية في العام ١٩٧٠ تنظيماً موازياً تزعمه فهمي السلفيتي وحمل اسم الكادر اللينيني في الحزب الشيوعي الأردني.

في هذا الخلاف، وقفت غالبية حملة البنادق الفلسطينيين مع المتحمسين لمنظمة الأنصار، وجارى عرفات الأغلبية، لكنه لم يعادِ الطرف الآخر. وكاتب هذه السطور يتذكر بوضوح تام كيف دأب ياسر عرفات على الإشادة بالقائد الشيوعي فهمي السلفيتي وجرأته في دعوته المثابرة لإعلاء صوت العقل. وقد رفع عرفات عيار الإشادة بالسلفيتي بعد أن أُخرج هو من عمان في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠. كان الزعيم الفلسطيني قد استخلص عبرة هذا الخروج وبدا كمن حسم أمره للشروع بالتبشير بصوت العقل في الثورة الفلسطينية. وأن يشيد عرفات بالسلفيتي، حتى وهو يجهر باختلافه عنه،

عنى أن قائد الثورة الفلسطينية مصمم على أن يأخذ حقائق الواقع بعين اعتباره. وكان هذا هو المدخل الذي ولجه عرفات في اتجاه المواءمة بين الهدف الفلسطيني ومعطيات الشرعية الدولية، المدخل الذي أفضى في نهاية المطاف إلى القبول بتسوية الصراع الفلسطيني الإسرائيلي في هدى قرارات الأمم المتحدة، أي إلى القبول بما دعا الشيوعيون إلى قبوله منذ البداية.

لم يكن من السهل الجهر بهذا التوجه قبل تهيئة الظرف الذي يجتذب غالبية ناس المقاومة الفلسطينية إلى القبول به. ولتوفير هذا الظرف، احتاج ياسر عرفات إلى جهود الشيوعيين، الفلسطينيين منهم وغير الفلسطينيين. وبعد أن اكتمل خروج مسلحي الثورة الفلسطينية في العام ١٩٧١ من الأردن، خاض ياسر عرفات، في سياق ما قام به لتوفير الظرف المطلوب، معركة إدخال الشيوعيين الفلسطينيين إلى هيئات م.ت.ف. ولم تكن هذه معركة سهلة. ففي " فتح "، كان رأي الأغلبية الكبيرة ضد إدخال الشيوعيين. وفي فصائل م.ت.ف. الأخرى، كان الرفض أوسع وأشد. وقد تسلح الرافضون كلهم، بين ما تسلحوا به، بذريعة مخالفةِ الشيوعيين نصوصاً صريحة في الميثاق الوطني الفلسطيني الذي يتوجب على كل عضو في أي هيئة من هيئات م.ت.ف. أن يقبله. فالميثاق يعدّ قيام إسرائيل وما مهّد له وما تبعه أموراً باطلة، ويضع قرار التقسيم بين هذه الأمور. وذلك، في حين أن الشيوعيين أيّدوا قرارات الأمم المتحدة وقبلوا بوجود إسرائيل ودعوا إلى تسوية سياسية معها تُعطي الفلسطينيين أقل، حتى، مما خصصه لهم قرار التقسيم، ما دام أن هذه التسوية تمكّن الشعب الفلسطيني من الاستقلال في دولة خاصة به.

بالرغم من هذا، خاض عرفات المعركة مستخدماً، كعادته، كل ما تيسر من أدوات وأساليب، وعوّل على قدراته الشخصية وبراعاته كلّها. حجة الميثاق، هذه التي كانت أقوى حجج الرافضين، واجهها العازم على إنفاذ ما يحتاج إليه، بالزوغان عن صلب ما جاء فيها، ووضع إزاء هذه الحجة حجة مضادة: الشيوعيون يؤيدون الميثاق، بعضهم يؤيده دون تحفظ، كما هو شأن شيوعيي غزة، وآخرون يؤيدونه مع بعض التحفظات، وقد التحق الشيوعيون بالكفاح المسلح الفلسطيني منذ أنشأوا منظمة الأنصار. ورشح عرفات لعضوية المجلس الوطني فؤاد نصار الأمين العام للحزب الشيوعي الأردني بوصفه من حركة الأنصار هذه. ولم يفت عرفات، وهو يهيء التأييد اللازم لضم نصار إلى المجلس، أن ينوّه بأن الرجل كان في العام ١٩٣٦ قائد فصيل مسلح في الثورة الوطنية التي انطلقت في ذلك العام.

في المحصلة، انتزع عرفات في العام ١٩٧٢ موافقة المجلس الوطني على منح فؤاد نصار عضويته، دون أن يلزم الحزب الشيوعي الأردني تبديل برنامجه السياسي الداعي إلى حل القضية الفلسطينية في ضوء قرارات الأمم المتحدة والموافق، خصوصاً، على قرار التسوية الشهير، القرار ٢٤٢. وكانت

هذه هي البداية التي تبعها إدخال الشيوعيين الفلسطينيين تباعاً في هيئات م. ت. ف. الأخرى. وهي البداية التي وطدت العلاقة الخاصة بين عرفات وبين هؤلاء الشيوعيين، العلاقة التي لم تنتكس بعد ذلك أبداً.

والواقع أن حاجة الشيوعيين إلى التعاون مع "فتح"، خصوصاً مع عرفات الذي كان سباقاً في توجهه نحو الاقتراب من البرنامج الشيوعي لحل المسألة الوطنية الفلسطينية، لم تكن أقلّ من حاجة "فتح" وعرفات نفسه إلى هذا التعاون. لا يتعلق الأمر، هنا، بالموقف الشيوعي المبدئي المناصر لحقوق الشعب الفلسطيني الوطنية، وحده، بل يزيد عليه حاجة الطرف الشيوعي إلى تصحيح الخطأ الذي وقعت فيه القيادة الفلسطينية الوطنية قبل ١٩٤٨ حين نبذت الشيوعيين الفلسطينيين وعادتهم وألّبت الجمهور ضدهم. والتعاون مع "فتح" مثّل بالنسبة للشيوعيين الحامل الذي تحقق عليه اعتراف الجميع بوجودهم في صلب الحركة الوطنية الفلسطينية المتجددة بعد النكبة. والواقع أيضاً أن سمات عرفات الشخصية، خصوصاً براغماتيته المقترنة بوطنيته التي تسع الجميع، قد لعبت دوراً بالغ الأهمية في توسيع هذا التعاون واطراده وحمايته من الانتكاس.

في صلب هذا الثبات في العلاقة، كمنت عوامل كثيرة برز في مقدمتها تأثير الحاجة المشتركة إلى المواءمة بين مطاليب الشعب الفلسطيني وأهدافه الوطنية وبين روح العصر وقيمه وقوانينه ومجمل ما تجوز تسميته الشرعية الدولية. هذه الحاجة التي كان ياسر عرفات أعظم من تمثلها بين قادة م. ت. ف. دفعت باتجاه العمل لتطوير برامج م. ت. ف. وسلوكها، واجتذاب أوسع أشكال التأييد لها في توجهها الجديد، لموازنة شتى اشكال الدوغمائية والتخلف المعششة في الساحة العربية وبضمنها الساحة الفلسطينية ذاتها. ولأن الشيوعيين شكلوا الفصيل الأكثر جرأة والأوسع خبرة والأشد اندفاعاً في هذا المجال، ولأن عرفات كان متحرراً من العداء المسبق للشيوعية مثلما كان متحرراً من أي عداء مسبق لأي طرف فلسطيني، ولأن التعاون مع الشيوعيين المحليين سوف يساعد في اجتذاب تأييد الأحزاب الشيوعية في العالم كله، الحاكم منها في بلده وغير الحاكم، فقد اتسمت علاقة عرفات بشيوعييه بحميمية وثبات افتقرت إليهما علاقته بأطراف أخرى كثيرة.

وفي المجالات الثلاثة، الفلسطيني والعربي الأعم والدولي، لعب الشيوعيون الفلسطينيون الدور الذي هم مؤهلون له لحشد تأييد نظرائهم من القوميين والتقدميين الآخرين، بأحزابهم وأنظمة حكمهم وهيئاتهم، لتوجهات م.ت.ف. والتأكيد على أهمية وجود "فتح" في صلبها ووجود ياسر عرفات بالذات على رأس قيادتها. ومع أن الجهد الذي بذله الشيوعيون الفلسطينيون لم يكن قليلاً فإنهم لم يكونوا هم أنفسهم متطلبين، ولو أجرى أي منصف مقارنة بين ما طلبه الشيوعيون من م.ت.ف. ومن ياسر عرفات بالذات وبين ما طلبته أطراف تقدمية أخرى منهما، فسيتأكد هذا الحكم.

من هنا، لن يخطيء من يحكم بأن ياسر عرفات كان يشاور الشيوعيين، الفلسطينيين وغيرهم، في كل خطوة اعتزم أن يخطوها باتجاه تحرير السياسة الفلسطينية من الدوغمائية، بعض التشاور كان يتم علنا، وأغلبه كان يتم دون اعلان. وقد كان للكتمان أسبابه. ففي تطويره العلاقة مع الشيوعيين، لم يواجه عرفات عنت دوغمائيي "فتح" والفصائل الفلسطينية الأخرى، وحدهم، بل واجه، إلى جانب عنت هؤلاء، عنت الأنظمة والأوساط العربية، الرجعية، وكذلك الأنظمة والأوساط العربية القومية المتشددة، وتعرض للوم مثابر من هؤلاء وهؤلاء. وبإمكان كاتب هذه السطور ان يشهد بما عرفه في هذا المجال. لقد تعرض ياسر عرفات لضغوط طاغية من هذه الأنظمة والأوساط استهدفت حمله إلى التخلي عن ما كان هؤلاء يصفونه باحتضانه هو الشيوعيين. وقد يكفي أن نستحضر، على سبيل المثال، ضغوط المملكة العربية السعودية في هذا المجال، أو ضغوط النظام العراقي الذي وقف الرئيس صدام حسين على رأسه، لندرك ما احتمله عرفات، ونظهر مقدار قوته وقناعته بأهمية التعاون مع الشيوعيين وهما القناعة والقوة اللتان مكنتاه من رفض الرضوخ لهذه الضغوط. وبوسع أي معني بالأمر أن يتذكر الأوقات التي اشتعلت فيها الخصومة بين ياسر عرفات وبين صدام حسين، ثم المصالحة التي تلت هذه الخصومة وما طلبه صدام حسين من عرفات، المطلوب الذي رفضه عرفات. لقد أراد حاكم العراق الفرد تقاضي القائد الفلسطيني ثمنا للمصالحة، وطلب صدام أن يكف عرفات عن حماية الشيوعيين العراقيين الذين التجأوا إلى مواقع الثورة الفلسطينية هرباً من بطش صدام. لكن عرفات رفض الطلب مجازفاً باستمرار الخصومة واستمرار الأضرار الخطيرة التي ألحقتها هذه الخصومة بالساحة الفلسطينية. وبثبات عرفات، تمكن الشيوعيون، العراقيون وغير العراقيين، من أن يتمتعوا بالحماية والمزايا الأخرى التي وفرتها القيادة الفلسطينية لهم في لبنان وغيره.

وإذا كان أحدٌ من الشيوعيون قد تعرض لأذى على أيدي فلسطينيين، فالمؤكد أن هذا وقع دون علم عرفات أو بالرغم منه، وأن عرفات حرص في كل مرة على وقف هذا الأذى.

* * *

بعد تأسيس العلاقة الخاصة في سنوات السبعينيات الأولى من القرن المنصرم، مرت العلاقة بين الجانبين، في تطورها المطرد، بمحطات متميزة سنرصد هنا المحطات التالية منها:

أولى المحطات الكبيرة التي احتاج فيها عرفات إلى الاتكاء على مواقف الشيوعيين وأصدقائهم كانت تلك التي تأسست مع حرب تشرين الأول/ اكتوبر ١٩٧٣. فهذه الحرب أفرزت قرار مجلس الأمن الدولي ذا الرقم ٣٣٨، الذي حدد آلية التفاوض على الحل السياسي الذي صاغه في العام ١٩٦٧ قرار مجلس الأمن ذو الرقم ٢٤٢. وقد شملت هذه الآلية عقد مؤتمر دولي للسلام تنظمه الأمم المتحدة

ويرأسه كل من الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الأميركية وتحضره الأطراف التي اشتبكت في الحرب، ليحدد بنود التسوية المنشودة في ضوء معطيات القرار ٢٤٢. وتم التوافق على أن ينعقد هذا المؤتمر في مدينة جنيف.

قوات الثورة الفلسطينية شاركت في ما سماه ياسر عرفات الجبهة الثالثة في هذه الحرب. وقد استثمر عرفات هذه المشاركة ليطالب بمقعد للفلسطينيين في مؤتمر جنيف للمشاركة في مجهودات التسوية. التوجه إلى المشاركة في مؤتمر جنيف اشعل الخلافات داخل الساحة الفلسطينية، داخل كل فصيل منها وفي ما بين فصائلها. وأفرزت الخلافات جبهتين كبيرتين: جبهة الرفض التي تعد المشاركة في مجهودات أي تسوية تفريطاً بالهدف الفلسطيني الكامل، وجبهة قبول التسوية التي ترى في المشاركة استثماراً إيجابياً لتضحيات الشعب الفلسطيني وجهوده، ومسعى لا بد منه لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أرض هذا الشعب وحقوقه. الشيوعيون، وحدهم بين الجميع، كانوا بالإجمال موحدين حول السعي إلى التسوية، فشكلوا بهذا طرفاً شديد الفعالية في دعم جبهة القبول. وببرنامجهم الذي لا لبس فيه وموافقتهم المسبقة على القرار ٢٤٢، كان الشيوعيون قد أفلحوا في تصدر النشاط الوطني السياسي في الأرض المحتلة بالذات واجتذاب غالبية الناشطين الآخرين وأكثرهم تمتعاً بالاحترام إلى جبهة القبول، وكانت الأرض المحتلة تشهد، بموازاة حرب الاستنزاف التي واصلتها سورية ضد إسرائيل، واحدة من انتفاضاتها البارزة. وكان الشيوعيون قد شكلوا العامود الفقري للجبهة الوطنية التي أطلقت هذه الانتفاضة منذ أواخر العام ١٩٧٣ وبرزوا بوصفهم القوة الرئيسة فيها.

استثمر عرفات على أكمل وجه صلته الوطيدة بالشيوعيين، وتعاون هو وإياهم، علناً وسراً، حتى أمكن أن يُشكل الراغبون في الإلتحاق بقطار التسوية والمشاركة في مؤتمر جنيف أغلبية في الساحة الفلسطينية، إن لم تكن كاسحة فقد كانت على كل حال أغلبية. ووجودُ هذه الأغلبية حوّل جبهة الرافضين إلى أقلية، إن لم تكن ضئيلة فقد كانت على كل حال أقلية. وفي الغضون، في الوضع الذي تم فيه الإصطفاف على هذا النحو، أمكن أن يجتذب عرفات الأمناء العامين لفصائل م. ت. ف. الرئيسية ومعهم ممثل للجبهة الوطنية في الأرض المحتلة إلى حوار استمر ستة أشهر وأفرز أول برنامج في تاريخ الشعب الفلسطيني يجيز لقيادته مرحلة الأهداف الوطنية، أي تحقيقها على مراحل، بدل التشبث بالهدف الكامل. وكان هذا هو ما سُمّى البرنامج الوطني المرحلي واشتُهر باسم برنامج النقاط العشر الذي صادق عليه المجلس الوطني الفلسطيني في العام ١٩٧٤ بما يشبه الإجماع.

هذا المجلس ضُمَّ إليه ثمانية من قادة الجبهة الوطنية في الأرض المحتلة كانت إسرائيل قد أبعدتهم بالقوة عن البلاد. وكان نصف هؤلاء الثمانية شيوعيين. وهو المجلس الذي انتخبَ فائق ورّاد الأمين

العام للحزب الشيوعي الأردني عضواً في المجلس المركزي. ويعرف شهود هذه المرحلة كم كانت العلاقة حميمة بين عرفات وورّاد. ويستطيع كاتب هذه السطور أن يضيف أن الدالة التي كانت لورّاد على عرفات لم يتمتع بمثلها أي قائد فلسطيني آخر في ذلك الوقت.

المحطة التالية، التي احتاج فيها عرفات لجهد الشيوعيين من أجل تسويغ خطوات كثيرة كان عليه اتخاذها، هي تلك التي بدأ تشكّلها مع توالي الانهيارات في الجدر التي كانت تسند العمل الوطني الفلسطيني والخط العقلاني فيه على وجه الخصوص: إنهيار النظم الإشتراكية في دول شرق أوروبا ومعها الاتحاد السوفياتي ذاته؛ إنهيار التضامن العربي في حرب الخليج؛ إنهيار كثير من القوى العالمية غير الحاكمة التي ألفت أن تسند الفلسطينيين. ففي ظل هذه الانهيارات، ارتفع ثمن التسوية، أو إنّ ما ارتفع هو ثمن مشاركة الفلسطينيين في التسوية. وبهذا، صار على الزعيم الفلسطيني الحريص على المشاركة أن يؤدي استحقاقات ثقيلة، كي يظفر الجانب الفلسطيني ولو بالقليل مما كان بمقدوره أن يظفر به قبل الانهيارات.

في هذا الوضع، لم يخذل الشيوعيون الفلسطينيون حليفهم. كان هؤلاء قد أفلحوا منذ العام ١٩٨٢ في الاستقلال من جديد في حزب خاص بهم حمل اسم الحزب القديم: الشيوعي الفلسطيني. وكان تأسيس هذا الحزب قد تمّ بموازاة التطور العام الذي شهدته الحركة الوطنية الفلسطينية كلها، في اتجاه تعزيز الكيان الوطني الفلسطيني وتوفير الإستقلال له.

وحين أوجبت الاستحقاقات الثقيلة على ياسر عرفات أن يخالف حتى البرنامج المرحلي المقرّ في العام ١٩٧٤ ويُظهر هدف إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة إلى جانب إسرائيل بوصفه الهدف الأقصى، وجد عرفات في الشيوعيين أوائل من يؤيدونه، إذ أن هذا هو ما طالبوا به هم منذ البداية. وهكذا، أسهم الحزب الشيوعي الفلسطيني بدور متميز في الدفع في اتجاه ما تبلور في نهاية المطاف، في العام ١٩٨٨، فأفرز وثيقة إعلان الإستقلال والمبادرة السلمية الفلسطينية التي قبلت تسوية تُشكل قرارات الأمم المتحدة، ومنها القرار ٢٤٢، مرجعاً لها.

في هذه المحطة، توجت مشاركة الشيوعيين في هيئات م. ت. ف. بتوسيع هذه المشاركة في المجلسين الوطني والمركزي، وانتخاب عضو مكتب الحزب السياسي سليمان النجاب عضواً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير، إضافة إلى تمثيل الشيوعيين في الهيئات السرية التي أنيط بها العمل المتصل بالإشراف على انتفاضة الأرض المحتلة. ويتذكر شهود تلك المحطة، وبينهم كاتب هذه السطور، أن بشير البرغوثي، الأمين العام للحزب، المقيم في الأرض المحتلة، وسليمان النجاب الذي أبعدته سلطات الاحتلال عنها، صارا بين أقرب المقربين إلى ياسر عرفات.

المحطة التالية كانت تلك التي بدأت باتفاق أوسلو. هنا احتاج عرفات، الذي أعاده الاتفاق إلى أرض

الوطن، إلى مساندة الشيوعيين. كان الاتفاق المثير للجدل قد دفع معظم فصائل م. ت. ف. وكثيرين من أعضاء "فتح" ذاتها إلى معارضة سياسة عرفات كما تجسدت في هذا الاتفاق. الشيوعييون الفلسطينيون، وهم الذين لم تفتقر أدبياتهم إلى ملاحظات سلبية ضد هذا الاتفاق، لم ينضموا إلى معارضي عرفات، ولم يخذلوه، ولم يبخلوا عليه بالتأييد. لقد أوغل الحزب كثيراً في سياسة مساندة ياسر عرفات، وقَبِلَ الأمين العام للحزب، بشير البرغوثي، أن يصير وزيراً في الإدارة التي أنشأها عرفات بعد عودته إلى الوطن، فضلاً عن استمراره في التمتع بموقعه الأثير عند الزعيم.

في هذه المحطة بالذات، بدّل الحزب الشيوعي الفلسطيني اسمه، فنحى منه صفة الشيوعية، وصار الأسم هو حزب الشعب الفلسطيني. وبتأثيرٍ مثابرٍ من بشير البرغوثي ومن جاروه من أعضاء القيادة، عدّل الحزب برنامجه ذاته، ونحى منه ما يشير إلى شيوعيته. وقد بلغت درجة مساندة حزب الشعب لياسر عرفات حداً أطلق إشاعات وتكهنات نسبت إقدام الحزب على تبديل اسمه إلى رغبة بشير البرغوثي وفريقه في إعفاء ياسر عرفات من اللوم الذي تصبه عليه الأوساط العربية المعادية للشيوعيين. هذه الإشاعات والتكهنات لم يظهر ما يؤكد صوابها، غير أن إطلاقها واستمرار بعضها إلى اليوم يدلان، مع دلائل أخرى، على عمق العلاقة وحميميتها بين ياسر عرفات وبين الشيوعيين.

يشار، هنا، في ختام هذه المقالة، إلى الحقيقة المعروفة، وهي أن "ركاح" الناشط داخل دولة إسرائيل، ظل، منذ تأسيسه حتى يوم الناس هذا، في طليعة الأحزاب الشيوعية، دعماً لمطالب الشعب الفلسطيني الوطنية وتشبثاً بحق هذا الشعب في الظفر بدولة خاصة به، ودفاعاً عن منظمة التحرير الفلسطينية. ويشار هنا، أيضاً، إلى أن ياسر عرفات كان بين أوائل قادة م. ت. ف. الذين التقوا قادة "ركاح". وقد نسج عرفات مع حزب الشيوعيين هذا علاقات اتسمت هى الأخرى بالثبات والحميمية والدعم والاحترام المتبادلين.